(٣)

الإيمان والشهادة
بمن نؤمن، ولمن نشهد

حديث الجمعة

٢٤ شعبان ١٣٨٠ هـ - ١٠ فبراير ١٩٦١ م

أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمدا رسول الله. على هذين الشقين من دعامة واحدة، عليها قام الإسلام وعنها قامت الصلاة، وانتظمت الزكاة، وتطوف الناس بالبيت العتيق يعنون إنسان رسول الله، وتشبهوا بمن استغنوا في أنفسهم عن كل ما سواهم من ملأ الله بالإمساك عما يقوم فيه الخلق من طعام بصيام رمضان.

بهذين الشقين من هذه الدعامة عليها قام الإيمان، وعليها قام اليقين، وعليها قام التوحيد، وبها قام العلم، وقامت المعرفة، وظهر قدس الله بوجه الله في الإنسان صبغة الخالق، وفطرة الخلق في الله، في دورة الحياة تدور في الموجود من غيب إلى مشهود ومن مشهود إلى غيب في الواسع العليم من الوجود.

إن الإيمان بالله، وشهادة أن لا إله إلا الله، يحمل المؤمن ويسير بالمشاهد إلى شهادة محمد رسول الله، تنزيها لله وإكبارا له، وإجابة من الله لطالبه، يطلب وجهه، فيؤمر وجهه أن لا تعدو عيناه عنه حتى به يراه.

وشهادة أن محمدا رسول الله، تحمل المشاهد لمحمد، قائما في قيامه مشاهدا فيه لعيانه، يقوم معه في الشهادة مثنى، ويتوحد معه بالإيمان في الروح فردا، يقوم فيه متقلبا بالسجود لربه، ويقوم به جارحة له، يعمل بها في خلقه.

إن هذه الشهادة والمشاهدة لمحمد رسولا لله في نفس المشاهد، وفي عيان المشاهد، وفي قيام المشاهد، فناء منه عن نفسه، وطلبا منه لربه مع رسوله، تنتهي به إلى شهادة أنه لا إله إلا الله. فهما شهادتان تنتهيان إلى شهود واحد أو إلى يقين واحد، وإلى أمر واحد، وإلى إيمان بقيام الله الواحد. لا شريك له من نفس المؤمن به، ولا قيام لغيره في قيام الإيمان به.

ليس جديدا على النفس ما تأتي به الشهادتان، ولكنها فطرة الله فطر عليها الوجود والكائنات، وصبغة الله صبغ بها الوجود والكائنات.. {ليس كمثله شيء}[1] لأنه كل شيء. إنه كل شيء ولا يستأثر بتمثيله دون الأشياء شيء.. إنه كل الناس ولا يستأثر بتمثيله على الناس فرد من الناس. ولكن الأشياء فيه، كما أن الناس من الأشياء فيه يتفاضلون، وفي قيامهم بصفاته يتفاوتون، وبنصيبهم من نوره يختلفون، وبمعانيهم من معناه يفترقون، {فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم}[2]، وما تفاوتوا إلا بما عملوا من أمانة الإرادة {أعطى كل شيء خلقه}[3] فخلقوا أنفسهم بإرادة أجهزتهم، وكتبوا ألواحهم في عوالم معانيهم بأقلام عقولهم {ن والقلم وما يسطرون}[4] ثم هم اليوم لما كتبوا في ألواح قديمهم بجديدهم يبرزون، وهم في جديدهم اليوم لألواح مستقبلهم بنشأة أخرى يكتبون ويسودون في كتاب قلوبهم بما في ضمائرهم من نوايا لها يطوون ويكتمون، فلا يلبثون أن ينشروها فيما يجدون لأنفسهم من حيوات في قابل، كما فعلوا في قديمهم فأوجدوا أنفسهم في حاضر، في قانون الله المجيب ونظام الله المستجيب.

إن قديم الحياة في نظامه، وإن مرجو الحياة في انتظامه، لا يتحقق إلا في الإيمان بقانون قيامه. فإن حاضر الحياة له في ذاته أمره الجامع، وقوانينه الشاملة، ونظامه المستقيم، ومكنته المحيطة بخيره وشره. إن الأديان والإسلام جماعها، وأمته اجتماعها، تحدث عن هذه الحيوات للإنسان متصلة الحلقات في قديمها مع مستقبلها عبر حاضرها. وتعلم عن الإنسان وحدة في عوالمه لا تنفصل ولا تنفك عقدتها، لا بفعل القديم من الإنسان، ولا بفعل الحاضر من الإنسان، ولا بفعل حضرة المستقبل للإنسان.

إن حضرة القديم لحاضر الإنسان ملأ من عالم الروح في قديم أزلي. وإن حضرة المستقبل لعالم الإنسان ملأ من عالم الروح في مستقبل أبدي. أما حاضر الإنسان فهو حاضر لذوات متجسدة ببرازخها من الروح في واقع سرمدي، الله من ورائها حضرات له محيط، فيها قائم على كل نفس بما كسبت، وبما صنعت، تذهب عنه بدنياها، وإليه بالبعث تعود بأخراها، حتى يتوفاها فتمسكها يده، فتعمل في ظهور وفي خفاء يدًا له، ورحمة منه. إنسان ملكوته، ويد جبروته.

أما الملأ الأعلى، فهو غيب الملأ الأدنى من عوالم الكواكب وبرازخها من الروح، له قديمه من الروح، وله قابله بالروح، وله ملؤه بحضرة مقابلة للحضرات القائمة عنه. لا يعود إليه إلا من كان بغيبه أصلا من أصوله، ولا يأتي منه إلا من كان أصلا لهذه البشريات. هذا ما عناه الرسول وما طلبه بحقه من عود للملأ الأعلى رفيقا فيه لرفيق فيه.

أما نحن على هذه الأرض، فلنا نظامنا ولنا قوانيننا، ننتظم فيما أمرنا بالانتظام فيه، ونخضع لما شرع لنا من قوانين الحياة به. ننتظم لتسكن نفوسنا، ويذهب قلقنا، ونمتثل لنسلك طريقنا، ونحقق بالقانون

سعادتنا، من كسب أيدينا، ومن سير أقدامنا، على ما نكتب في قلوبنا بإرادتنا، وعلى ما ندرك بعقولنا ونحقق لأنفسنا بنفوسنا. فإذا لم تكن الجنة حاضرة لنا، مدركة لعقولنا فلا جنة عندنا. وإذا لم تكن النار مبرزة لشهودنا، مدركة لحسنا، مقدرة لعقولنا، فليس هناك من نار لنا. {لمن خاف مقام ربه جنتان}[٥]، {قطوفها دانية}[٦] {وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد}[٧]، {الجنة عرفها لهم}[٨]، {وبرزت الجحيم للغاوين}[٩]، هم تحت شمسها يصطلون بزمهريرها. أما تلك فلا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. إنهم في حياة كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليدركوا ويفيقوا من قيام القطيعة، ويعلموا أن في القطيعة عن لطيف الله وجيعة. يلحقهم بلطيفه، فيقومهم بتشريفه، فتكون النار بردا وسلاما، ويكون الخصام ألفة ووئاما. يلحق الأبصار فتشهد به البصائر تشهد منه وجودها وقيامها أقرب إليها من حبل الوريد، مع الكل لا تميز، مع أهل السماء، مع أهل الأرض، مع من كان تحت الثرى {وهو معكم أين ما كنتم}[١٠].

كل هذا في شق الدعامة من شهادة أن لا إله إلا الله، وعلى ما يُدرك هذا المعنى في شهادة أن لا إله إلا الله، يجب أن ندرك كل هذه المعاني في شهادة أن محمدا رسول الله.. فإذا كان الله لا يغيب، فعبده به رسولا منه معه لا يغيب. إذا كان الله لا يغيب فالرسول لا يغيب. وإذا كان الله لا يقبل إلا طيبا، فالمؤمن بالله ورسوله هو الطيب الصالح لأن يقوم فيه بملكوته، وأن يقوم به بهديه وجبروته، فهو الطب والطيب، لكل نفس تزكت به، وما دست معناها له ولرسوله.

فكل ما ينطبق على شهادة أن لا إله إلا الله، ينطبق على شهادة أن محمدا رسول الله - وكما قلنا - إذا قامت شهادة أن لا إله إلا الله في مشاهد للا إله إلا الله، كان معراج المشاهد أن يشاهد في هذا الشهود عظمة الشهادة بأن محمدا رسول الله. وإذا شاهد مشاهد عرف رسول الله، فصاحبه فصحبه، فودَّه فودَّه، عشقه فأحبه، فنى فيه فنفسه أوجده، قام به فرسوله قامه. من شهد أن محمدا رسول الله كان معراجه أن يشهد العظمة في شهادة أن لا إله إلا الله. فبهاتين الشهادتين يقوم الإنسان حيا بأحدهما قيوما بالحياة الثانية منهما، مؤمنا بالله أكبر بقريب الله فيه.

إنهما شهادتان تمثلان شقي الإنسان من غيب الرحمة، ووجه الرحمن، من الله ومن خلق الله، من الغيب ومن الشهادة.. إنسان غيب لإنسان شهادة.. وإنسان شهادة لإنسان غيب.. إنسان هو أنس الغيب وأنس الشهادة.. إنسان القلب وإنسان القالب.. إنسان الروح وإنسان الذات.. إنسان الرحمة وإنسان المرحمة.. إنسان الأبوة وإنسان البنوة.. إنسان الحق وإنسان الخلق.

جاء الإسلام يحمل لنا كل هذا، ويبشرنا بكل هذا، ويحقق لنا كل هذا، ويعدنا بكل هذا.. جدد لنا على رؤوس القرون من يجدد لنا أُمور ديننا. وما بدأت القرون فيه إلا مع أنفاسنا، وأيامنا، ولياليا،

فجدد الإسلام رب الإسلام في دوام في كل لمحة، ومع كل نفس، وفي كل حين، وفي كل أمة. أبرز رب الإسلام كتاب الإسلام، في تجدد ما انقطع، وفي علم ما توقف، وفي انتشار ما حد، لا شرف فيه لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وما حرم منه قوما أو فردا فهو دين الفطرة وللكافة، وهو الذي وعد كل مجاهد فيه بأنه سيتولاه، ويسلكه طريقه فيه، ويهديه سبيله قائما على كل نفس. وما كان رسول الإسلام وربه لمن تابعه وعلى من تبعه إلا كافة للناس لا تتميز عنده الأجناس، والكل فيه، والكل منه، والكل له، والكل في رعايته، والكل في ربوبيته، والكل في قدرته، والكل في رحمته - والكل في رسالته وهديه هديا لربه. يعلم السر وأخفى عند كل فرد ويصاحب كل نجوى ما تناجى المؤمنون عنه.

هذا هو الإسلام، أتت به قديما السماء في يوم كان فيه أهل الأرض من أهل السماء في عصر الآباء في أحسن تقويم. وأتت به بعد ذلك السماء في الأبناء عن الأنبياء لأبنائهم من الأرض التعساء وقد رأى الناس أنفسهم من أهل الأرض جاهلين بأرواحهم من أهل السماء، وهم نيام في ظلام الليل من يومهم، وفي جهل من أمرهم، فجاء لهم الأنبياء مؤذنين بالصلاة وموقظين بندائهم لهؤلاء النيام.. أن أفيقوا أيها النيام واستيقظوا فقد بلغ الليل أجله وبدأ النهار موعده، فاستيقظ من استيقظ وغط في نومه من غط، إلى أن جاء محمد فكان فيصلا بين قديم الناس من الآباء ومستقبل الناس بالآباء في حق يقوم في حاضر الناس يجعل منهم أبناء الآباء وآباء الأبناء. قدم لهم كتابه أخذه بيمينه، غفر له به من أنانيته، ووضع عنه حمله من ماديته، وقال للناس داعيا.. {هاؤُم اقرءوا كتابيه}[11].. قد غفر لي ما تقدم من ذنبي وما كنت إلا مذنبا، وغفر لي ما تأخر من ذنبي ولا أراني إلا مذنبا. وعلمت ما قدمت نفسي وما أخرت، وما أراني في دائم أمري إلا مقدما ومؤخرا. وها أنا أقوم بينكم اليوم، نفسي بيده لا أملك لها خيرا ولا نفعا، ولا حياة ولا نشورا، أقربكم إليه وكلكم منه قريب، وأخوفكم منه وكلكم منه في مناط اختباره. ها أنا رسوله ولا أدري ما يفعل بي غدا. اعرفوه في أنفسكم كما عرفته في نفسي. واخشوه في أنفسكم كما أخشاه في نفسي. وتابعوني على ما أتخلق به بينكم تخلقا بخلقه يرتضيكم لنفسه على ما ارتضاني لها بينكم رسولا من أنفسكم. فكان بذلك فيصلا للزمان، به يبدأ وإلى ما انتهى إليه قديمه به ينتهي، أسوة للكافة، ومثالية مرتضاة تتحقق في دوام.

بهذا جاء محمد، وهذا هو أساس لما جاء به محمد، فكانت شهادة أن لا إله إلا الله أساس رسالته، وشهادة أن محمدا رسول الله أساس طريقه وهديه ورحمته، طريقا وهديا ورحمة من الله. ولكن الناس على ما كانوا في قديمهم معه ومع مثاله واصلوا في جديدهم من بعده له كيدهم كلما ظهر لهم منه ظاهر من حال أو قيم من مقال.

وها هي السماء كما نصرته يوم أبرزته لها رسولا، وكما علمته يوم أوجدته على أرضها حكيما، وكما قامته يوم قام الحق به على الأرض فقدر فيها أقواتها في يومين من يوم وليل في نور وظلمة، يكور الليل على النهار، ويكور النهار على الليل كلما ظهر منه ظاهر، ثم استوى مستويه إلى السماء فسواهن سبع سموات، في أربعة أيام من يوم وليلة، فحمل العرش بثمانية من أيام ولياليِ دعوة الحق به ورحمته منه، واستوى حقه على العرش ووسع كرسيه بذكره السموات والأرض.. كل من في السموات والأرض آتيه، وما أتاه إلا عبدا لله بالله.. ربا للناس بالناس.. عبدا لمن ليس كمثله شيء.. عبدا للأحد.. عبدا للصمد ووجها له كان به ربا للناس.. ملكا للناس.. إلها للناس بالحق فيه.. جماعا للناس بتكاثره.. آدما للناس بتجديد مفرداتهم منه.. أوادم الناس باقتدائه يقومهم.. كلمة جامعة للناس، لكلمات هي الناس، إلى أبيه وأبيهم به يؤمهم، وإلى أبائه أباءً لهم به يرجعون.. وبروح القدس فيه، وبروح القدس معه، وبروح القدس له، فيه كلمات لله يقومون، وبمحبتهم له وبمحبته لهم روحا للقدس يصيرون.

فهو عبد الله وآدم أوادمه بقديمه وبجديده.. هو عبد الله وروح أرواح قدسه.. هو عبد الله وكلمته عند كلمات الله.. هو عبد الله ورسوله عند رسل الله.. وهو رسول الله وعبده عند خلق الله.. يقوم عبدا فيرسل ويقوم رسولا فيعبِّد.. نبي الأنبياء وولي الأولياء.. وأب الآباء وجد الأبناء.. وروح القدس لعباد الله في الأرض وفي السماء.

هل عرفه من أرسل إليهم؟ هل قامه من أحبهم؟ هل عبد نفسه لربه وجها له من خَلقهم ببيعته، وخلَّقهم بقدرته؟ قليل ما هم.. قليل الشكور.. ولكنه ربٌ أمته مذنبة، وهو الغفور، شهيد على الشهداء.. رحمة للعالمين.. مالكا بربه ووجها له ليوم الدين.. روح الإسلام وبيان الكتاب.. وسر الطريق.. ونور الحياة.. وإنسان الوجود وقيام اليقين.. ووجه الله.

هذا من نشهد بعبوديته لله ورسالته من الله فنشهد أن لا إله إلا الله.

اللهم أشهدنا به أنه لا إله إلا الله، وأشهدنا برحمتك أنه محمد رسول الله. اللهم اغفر لنا ما تقدم من ذنبنا وما تأخر، وعافنا من إقامة عدلك فينا، وعاملنا بعفوك ومغفرتك ورحمتك. اللهم كن لنا في الصغير والكبير من شأننا. اللهم تولَ في الدارين أمورنا. اللهم قوم بفضلك في الحياتين سبيلنا، وأنر وأبن إليك طريقنا، وخذ بيدنا واجعل خير أعمالنا خواتيمها، واجعل خير أيامنا يوم لقائك. اللهم ولِ أمورنا خيارنا ولا تولِ أمورنا شرارنا. اللهم أصلح شأننا حكاما ومحكومين، وقوم طريقنا، ويسر أمرنا، واغفر لنا حكاما ومحكومين، وتولنا فيك حكاما ومحكومين، برحمتك يا أرحم الراحمين ارحمنا واغفر لنا وتب علينا.

أضواء على الطريق

من هدي القرآن:

- يا أيها الذين آمنوا (بالله)، اتقوا الله (الذي آمنتم به في قيامكم)، وآمنوا برسوله، (فهو لكم الأكبر من نفوسكم به تعلمون أن الله أكبر منكم).
- هو الذي يراك حين تقوم (في الناس بنورك وروحك)، وتقلبك في الساجدين (وقيامك في الساجدين لله ماحيا وجودهم إلى وجودك فأنت الإيمان الذي يدخل في قلوب المؤمنين بالله).
- قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا (أي مثنى مع الرسول دائم القيام والتجدد وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، تُمحى نفوسهم في محبته لهم بمحبتهم له فيصبح معهم وترا.)
- والفجر وليالٍ عشر والشفع والوتر والليل إذا يسر إن في ذلك قسم لذي حجر. (الفجر القلب المشرق بنور الصباح من نور الله في يوم الله من الإنسان الذي قامت به العبودية لله. والليالي العشر الأوادم المظلمة والكواكب البشرية الدائرة في فلك شمسه تشرق بنوره ويُمحى ظلام كواكبها بالتوحد معه وقيامه معها وترا لا تعدد له وقد كانت معه بطبيعة ظلامها شفعا لا دوام له. وفي إدراك ذلك ونفاذه نصيب لأصحاب العقول المدركة).

مصادر التوثيق والتحقيق

١ سورة الشورى - ١١
٢ سورة الجاثية - ١٧
٣ سورة طه - ٥٠
٤ سورة القلم - ١
٥ سورة الرحمن - ٤٦
٦ سورة الحاقة - ٢٣
٧ سورة ق - ٣١
٨ سورة محمد - ٦
٩ سورة الشعراء - ٩١
١٠ سورة الحديد - ٤
١١ سورة الحاقة - ١٩